

الثقافة الاسلامية ومكانة اللغة العربية في الجزائر قبل الاستقلال

محمد بنالم

أستاذ بكلية الآداب بالرباط

1 - نظرة عامة :

لا لاستحالة حرمان الشعوب المستعمرة من ثقافتها الموروثة ولكن لما تحتاج اليه طبائعهم المتوحشة القديمة، ومواهبهم الذهنية البسيطة من الآجال لتفهم المدنية واستيعاب الثقافة الفرنسية الراقية .

وبصرف النظر اذن عما يرمى اليه المستعمرون المسؤولون بمقاومتهم للغة العربية وللتعاليم الاسلامية من اهداف سياسية بعيدة المدى ، فهناك فئة ضئيلة من الفرنسيين الذين لم يقاوموا الثقافة العربية الا لجهلهم اياها والحط من قيمتها ، ولاقتناعهم بتفوق الثقافة الفرنسية الجديدة بتزوير النفوس وتحرير العقول .

وهكذا فان كان الاولون منهم ينتمون الى طائفة المستعمرين المتعصبين الاقحاح ، فان الآخرين ينتسبون الى جماعة السياسة المعروفة بالسياسة الاستعمارية «الابوية» لان كلا من الفريقين يخول لنفسه الحق في تسيير شؤون الشعوب المستعمرة وحمايتها .

وفي الواقع فان سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر كانت تتسم بالاضطراب والفوضى ، وان اجمع معظم المسؤولين الفرنسيين على محاربة الثقافة تطبيقا لسياسة الادمج واتقاء بأس الوطنية التي كانت تستوحى روحها من الحضارة الاسلامية ، فمنهم من كان يدعو الى نشر اللغة الفرنسية وتنمية تعليمها أملا في فرنسة الشعب الجزائري . ومنهم من ينادى بحرمان الجزائريين من كل تعليم عربي كان ام فرنسيا ، بدعوى ان في تثقيف الاهالي خطرا على السيادة الفرنسية في البلاد ، وأشد الفرنسيين تمصبا لمبدأ تجهيل الجزائريين الازبيون القاطنون في الجزائر . الامر الذي ادى الى جدال مستمر بين الجانبين وتضارب بين المبدأين وحسب الظروف ولون الحكومات السياسية في فرنسا

أشار البرنامج الذي وضعته اللجنة الوطنية للثورة الجزائرية المعروف «بميشاق طرابلس» الى ضرورة بعث الثقافة الوطنية وتريب التعليم تمرينا تدريجيا مستندا على أسس علمية صحيحة .

ان لهذه الفقرة ، بالرغم عن قصرها وايجازها ، مفاهيم كثيرة ومعنى غزيرا ، حيث انها تدل بديها على ان التعليم في الجزائر العربية ، ليس بعربي ، وان ثقافة الشعب الجزائري في حاجة الى الانبعاث بعد فترة الاستعمار الطويلة التي نم يال الحكام الاجانب جهدا أثناءها ، في سبيل القضاء على مميزات البلاد الثقافية ومقوماتها الروحية .

فمن بين سائر البلدان العربية التي اصيبت بنير الاستعمار ، لم يعرف التاريخ ، في حقيقة الامر بلادا، بذل فيها المستعمرون الاجانب ما بذله الفرنسيون في الجزائر من جهود متواصلة جبارة طوال مائة واثنتين وثلاثين سنة لمحاربة اللغة العربية والدين الاسلامي ، وفرنسة الشعب الجزائري ماديا وفكريا وعاطفيا .

وذلك لان المستعمرين الفرنسيين ، كغيرهم من المستعمرين اللاتينيين ، بعد اختلاسهم لاراضي البلاد وأرزاقها ، أصبحوا يعتقدون ان ثرواتهم المكتسبة تظل معرضة للخطر ما دام استيلاؤهم على ارواح الاهالي غير كامل ، اي ما دام الاهالي يأملون في التحرر ويفكرون في وسائله ، فلذلك ما فتئوا يسعون في سبيل القضاء على كل ما من شأنه أن يضمن للشعوب المستعمرة المحافظة على شخصيتها ومميزات الخاصة ، تمهيدا لادمج تلك الشعوب في نطاق حضارتهم ، وتقاليدهم الاجتماعية ، وآفاقهم الفلسفية والدينية ، الامر الذي يستوجب في نظرهم القرون بل العشرات من القرون

(تعريفا تدريجيا مستندا على أسس علمية صحيحة)
كما نص عليه «ميناك طرابلس» .

2 - التعليم الوطني قبل الاحتلال :

في الجزائر كما في سائر البلاد العربية كان أساس الثقافة بوجه عام والتعليم بوجه خاص الدين ، وكل ما كان يمت من قريب أو من بعيد الى حياة الشعب الجزائري في الميدان المعنوي الاخلاقي ، كان داخلا في نطاق مهام المؤسسات الدينية لا في نطاق مسؤولية الحكومة والادارات .

وهذه الظاهرة كانت أكثر تجليا في جزائر ما قبل الاحتلال الفرنسي حيث كانت السلطة الحاكمة في يد العسكريين الاتراك الذين كانوا يمتازون بضعف ايمانهم ويتسمون بقلة تعبدهم .

وهذه المؤسسات هي الجمعيات الخيرية كالاقواق او الاحباس والجمعيات او الطرق الصوفية المعروفة في المغرب العربي وبالزوى عامية زوايا والمفرد منها زاوية . فالى الاوقاف والى «الزوى» يرجع الفضل في تشييد المساجد ، والمساجد الجوامع ، وضرائع الاولياء . وكانت قد جرت العادة ان تبني مدرسة او كتاب بازاء كل مسجد او كل ضريح ولى ، وذلك في المدن والقرى على السواء .

ولم تكن الحكومة تمد هذه المؤسسات بنفقة ولا بمنحة كيفما كان قدرها او نوعها وميزانياتها كانت تزود بفضل دخل الاملاك وارضى الفلاحة التي كان بعض المؤمنين من اهل التقوى والصلاح يحبسونها على معاهدها الدينية والتعليمية .

فبناء المعاهد التعليمية ، واصلاحها ، وتجهيزها وتأمينها ، كرواتب رجال التعليم واصحاب المناصب الدينية ، كان كل ذلك على نفقة الاوقاف . غير ان محصول الاوقاف لم يكن ينفق كله على هذا ، بل منه ما كان يخص لتأدية سفر المعوزين من الحجاج كما كان يتفق بعضه على المحافظة «على عيون الماء» والسقايات والميضاءات او على اصلاح بعض ثكنات الحرس من الاتراك ، ولكن كانت اموال الاوقاف في الغالب تنفق على المشاريع الاجتماعية . فاقواق «سبل الخيرات» مثلا ، وهي جمعية خيرية كانت تتولى السهر على المساجد الحنفية الثمانية بالجزائر العاصمة وكان يقدر (سنة 1837) مدخولها السنوي بـ 13.239 فرنك وكان هذا المبلغ يخصن كله للمساجد المذكورة

كان الانتصار تارة لبدا نشر التعليم وفي غالب الاحيان لعدم نشره .

ومع توالي السنين اسفرت سياسة فرنسا التعليمية الادماجية عن نتيجتين متباينتين : نجحت او كادت في مقاومة اللغة العربية وفشلت او كادت في فرنسة الشعب الجزائري عن طريق التعليم في المدرسة الفرنسية لتفاهة هذا التعليم لا من حيث الكم فحسب بل حتى من حيث الكيف ، فلا فرنسا تركت المجال للجزائريين لتعلم لغتهم ولا هي علمتهم لغتها .

نعم ، ان هناك فئة من الجزائريين تكونت في الميدان الثقافي تكونا فرنسيا خالصا . غير ان هذه الفئة قليلة جدا بالنسبة لعدد السكان في البلاد ، من ناحية ، وبالنسبة لطول المدة التي ظلت الجزائر خلالها تحت النفوذ الفرنسي من ناحية اخرى .

وبالاضافة الى هذه الظاهرة الغربية ، نلاحظ ، الى جانب وجود الطبقة المثقفة بالفرنسية طبقة اخرى ، اقل عددا بكثير من الاولى ، وتخرجت اثناء السنين الاخيرة من المدارس الجزائرية الحرة او من جامعات البلاد العربية كالترويين والزيتونة والازهر . وثقافة هذه الطبقة بالطبع ثقافة عربية تقليدية صرفة .

واما الذين ساعدهم الحظ واكتسبوا ثقافة مزدوجة ، فعددهم قليل جدا حيث ان الازدواجية في التعليم الرسمي الفرنسي الجزائري لم تتم الا في السنوات الاخيرة قبيل الاستقلال وفي عدد ضئيل من المدارس .

وهذه ظاهرة هامة ميزت بين التعليم الفرنسي العربي في تونس والمغرب حيث اعطت البرامج الرسمية مقاما لا بأس به للخصص العربية سواء كان ذلك في التعليم الابتدائي او في الثانوي وبين التعليم الفرنسي في الجزائر حيث ظل فرنسيا صرفا طوال مدة الاستعمار .

* * *

وعلى ضوء هذه المقدمة يسعنا الآن ان نعود بالذاكرة الى السنوات الماضية لنحاول اكتشاف الحالة التي كانت عليها اللغة العربية في الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي (سنة 1830 م) وكيف تطورت تعليمها وتعليم الفرنسية اثناء المائة والاثنتين والثلاثين سنة اى خلال الحقبة التي كانت الجزائر فيها تحت سلطان الفرنسيين ، والغاية من هذه الدراسة استخلاص المعطيات التي يمكن بمقتضاها تعريب التعليم في الجزائر

وللمعاهد التعليمية التابعة لها . واما مبلغ محصول الاملاك المحبسة على الجامع الكبير بالعاصمة فكان 12.000 فرنك .

1 - التعليم الابتدائي :

وخلاصة القول ، فالمؤسسات المذكورة من «الزوى» ومن جمعيات الاوقاف هي التي كانت تتولى الاشراف على التعليم وهي التي كانت تتحمل تكاليفه المالية - وهذا التعليم كان يشمل جميع الاولاد الذين كان يتراوح سنهم بين السادسة والعاشر ، وهؤلاء الصبيان الصغار كانوا يختلفون الى ما نسميه اليوم بالمدارس الابتدائية . والمدرسة عبارة عن كتاب او كما يقال في اللهجة العامية «مسيدة» تابع لمسجد او لضريح ولى في المدن والقرى . واما في الارياف عند البوادي فقد كانت توجد بيوت من شعر يقال لها «الشربية» يقرأ فيها صبيان القبيلة او الفرقة من القبيلة تحت اشراف مؤدب يتولى تسميته شيخ الفرقة .

والمؤدب لم يكن يتقاضى راتبا معيناً محدوداً بل كان آباء التلاميذ في السلك الابتدائي يؤدون له شهرياً اجرة يختلف قدرها باختلاف ثروتهم . والفقير منهم لم يكن يدفع للمؤدب شيئاً لان التعليم كان في الجزائر كبقية مختلف البلاد الاسلامية يعطى لوجه الله .

وبالاضافة الى الاجرة كان الآباء يكرمسون المؤدب بهدايا ، بمناسبة الاعياد الدينية الشرعية وبمناسبة تقدم الصبي في تعلم القرآن وحفظه آياه ، وكثيراً ما كانت تعطى آياه الهدايا عند ما كان يختم الصبي حفظ حزب من احزاب القرآن او حفظ الربع او النصف من الحزب .

وفيما يلي نذكر على سبيل المثال ما كان يتقاضاه مؤدب في مدينة قسنطينة سنوياً ما قبيل الاحتلال :

- 1 - منحة سنوية قدرها بالتقريب 14 فرنك
- 2 - هدايا بمناسبة لكل عيد من الاعياد : الاحد عشر
- 3 - منح بمناسبة الدرجات التي يجتازها التلميذ 11 فرنك

الجميع 30 فرنك

وبما ان كل مؤدب كان يسهر على ما بين عشرين وثلاثين تلميذاً فقد كان يتقاضى فرنكين في اليوم ،

اضف اليهما المنح الاستثنائية وما كان يقبضه جزاء عن عمله في المسجد حيث كان كثيراً ما يقوم بوظيفة مؤذن و بوظيفة امام .

واذا ما اعتبرنا ان الهكتولتر (L'hectolitre) من القمح كان اقصى ما يبلغه من الثمن 8 فرنك والكبش 4 فرنك استخلصنا ان حالة المؤدب المادية كانت مرضية الى حد ما . واما حالته المعنوية فقد كانت حسنة جداً لانه كان موضع التقدير والاحترام من طرف جميع اعضاء الحي او القرية او القبيلة .

هذا ولم يكن المؤدب تحت اية حراسة او مراقبة رسمية . غير ان ارباب العائلات كان لهم الحق ، في حالة ما اذا ارتكب المؤدب زلة او جناية ، في ان يجتمعوا ليقرروا معاقبته . فيوجهون اليه انذاراً او يعزلونه ويعوضونه بغيره .

وكثيراً ما كان اهل القبائل في البوادي والارياف يرسلون ابناءهم يتعلمون في المدن وقد كان اقاربهم او اصدقاءهم يتولون ايوائهم واطعامهم مجاناً .

وقد كان يوجد في مدينة قسنطينة سنة 1837: 79 كتاب يختلف اليها 1350 تلميذاً وكان في نفس السنة 50 كتاباً في تلمسان حيث كان عدد سكانها يتراوح ما بين 12.000 و 15.000 نسمة .

أما ما كان يقرأه التلاميذ من المواد ، فقد كان كله دينياً ، ففي خلال السنوات الاربع الاولى كان يحفظ التلميذ عن ظهر قلب كل ما يتصل بالقواعد الدينية كالشهادة وفرائض الوضوء والصلاة وواجبات القيام بجميع شعائر الاسلام والعبادات . وكان في نفس المدة يتعلم الكتابة والقراءة ليتمكن من تلاوة القرآن وحفظه وقراءته عن ظهر قلب الامر الذي يكلفه جهوداً جبارة لانه لا يحسن العربية الفصحى ولا يفقه بالتالي لغة القرآن .

وهذا التعليم الابتدائي لم يكن يستفيد منه الا الاولاد دون البنات . اللهم الا ان هناك عائلات غنية كانت تستأجر شيخاً مسناً تمهد اليه بتأديب بناتها لان العوائد لم تكن تسمح في الوسط الجزائري للبنات بالاختلاف الى مدارس البنات كما انها لم تكن تسمح بتخصيص مدارس للبنات .

وعند ما ينهى التلميذ تعلمه في الابتدائي اى عند ما يصبح مهذباً في المسائل اندينية وحافظاً للقرآن يمكنه مواصلة دراسته فيما يسعنا ان نسميه بالتعليم الثانوي.

وهذا التعليم الثانوي كان ينظم على السواء في مساجد المدن وفي مساجد البوادي والارياف في بنايات تخصصها لها الاوقاف وتنفق عليها من دخلها ومن تبرعات بعض الآباء والطلبة الاغنياء .

ب - التعليم الثانوي :

والتعليم الثانوي كان مبدئيا مجانا . والمدرسون فيه كان يسميهم الباي باقتراح من الناظر . وبالإضافة الى السكنى التي كان يتمتع بها مجانا فقد كان كل مدرس يتقاضى سنويا راتبا يتراوح بين 100 و200 فرنك يؤخذ من خزينة الاوقاف . وفي معظم الاحيان كان يجمع بين وظيفة المدرس ووظيفة القاضى والمفتى وزيادة على هذا كله كان المدرس يتمتع ببعض الامتيازات المادية لانه كان يعطى مجانا الماء لوضوئه ، والزيت لايقاد قنديله ليلا ، حتى يتمكن من اعداد دروسه ، وخلال شهر رمضان كانت تهدي اليه الحلويات كل يوم ، وبمناسبة عيد الفطر كان يتسلم البسة جديدة .

اما تلامذة الثانوي فلم يكونوا يؤدون اية اجرة في مقابل الدروس التي يتلقونها بل كانوا هم المستأجرين بحيث كانوا يتمتعون بالماء والزيت مجانا وكانت تعطى اياهم الحلويات اثناء شهر رمضان . ففي مدينة قسنطينة ، حيث كان يوجد 35 مسجدا و7 مدارس فمن بين السبعمائة تلميذ الموجودين فيها كان 150 منهم يتقاضون من الاحباس اجرة سنوية قدرها 34 فرنك لكل فرد . والثلاثان من عدد هؤلاء التلاميذ كانوا ينتمون الى قبائل ناحية المدينة بنى لايواتهم عدد من الزوايا . واما الجزائر العاصمة فقد كان فيها ست زوايا ، ثلاث للطلبة الذين اتوا من غرب القطر ، واثنتان لطلبة الشرق ، والسادسة لمن ليس لهم اسرة من طلبة العاصمة . وفي قسنطينة كان عدد الزوايا 16 . واما تلمسان فعدد زواياها لم يعرف المتدقيق . ولكن من المسلم به انه كان كثيرا . ففي المدينة نفسها نعلم انه كانت مدرستان احدهما تابعة للجامع الكبير والآخرى هي المدرسة المعروفة بمدرسة «ولد الامام» . وفي ناحية المدينة بعين الحوت ، كانت مدرسة مشهورة .

هذا فيما يخص المدن الكبيرة ، واما في الارياف والقرى عند القبائل ، كانت الزوايا تبني عادة ازاء ضريح الولي الذي من اجله شيد المسجد تخليدا لذكراه ، او ان لم يكن ضريح ، تكون المدرسة عبارة عن كوخ او عن بيت من الشعر ، وكانت تحبس على هذه المؤسسات اراضى لافلاحة يستثمرها فلاحو الناحية .

وكان ما يجنى من فلاحية هذه الاراضى ينفق على المدرسين والتلاميذ فضلا عن غيرها ، كان الجزائريون المجاورون للمؤسسة يدفعون العشر من غلاتهم .

وهذه المدارس كانت تتفاوت اهمية وصيتا . غير اننا لا نعرفها كلها . ولقد ذكر المؤرخون ثلاثين زاوية تقريبا في تلمسان وناحيتها وعددا هاما غير محدود في ناحية سيدي بن العباس ومعسكر ومدرسة في مستغانم ومدارس في الوردسنييس كمدرسة «ابن الرباط» التي كان عليها اقبال عظيم من طرف الطلبة . اما النتيجة فنعرف فيها «زاوية المرؤسي» كما نعرف «زاوية سيدي خير الدين» في مدينة الاربعة وزاوية «النميلي» في بني موسى وزاوية «سيدي العيد» بين بوفاريك واندويرة وزاوية «سيدي الهسي» في اولاد منديل وزاوية «البركاني» بالقرب من مدينة شرشال .

اما اهل بلاد القبائل (البرابر) فقد كانت لهم بعض الزوايا اشتهرت منها اثنتان: زاوية مولاي شقفة بوادي الزهر فيما بين مدينة القل ومدينة جيجل وزاوية ابن علي الشريف بالقرب من آقبو .

وعلى حسب الاحصاءات كان عدد التلاميذ الذين يتابعون دروسهم في الثانوي يتراوح ما بين الفين وثلاثة آلاف في كل ناحية .

واما مواد التعليم في الثانوي فهي تنحصر في العلوم الدينية واللغوية ، وكان المدرس او الشيخ يلقي تلاميذه ثقافة عامة تشتمل على تدريس النحو والصرف والتفسير .

وعندما ينهى التلميذ دراسته الثانوية ، يتسلم من شيخه شهادة كفاءة تسمى بالاجازة يشهد له فيها انه حصل على جميع المعارف التي تدخل في نطاق تعليمه .

وهكذا يصبح نائل الاجازة طالبا بالمعنى العامسى الجزائري اي رجلا مهذبا يخسن قراءة القرآن في المساجد ويستطيع ان يرشح نفسه لمنصب كاتب (خوجة) او مؤدب في التعليم الابتدائي الاسلامي .

ت - التعليم العالي :

وان كان صاحب الاجازة ذا قريحة ورغبة في المزيد من العلم واصل دراسته في التعليم العالي . وفي واقع الامر لم يكن هناك فاصل بين التعليم الثانوي والتعليم العالي وانما كانت قيمة الدروس الملقاة على الطلبة منوطة بقيمة الشيوخ لا من حيث الثقافة فحسب ولكن حتى من حيث مواهبهم في فن التبليغ . فان كان مستوى تعليمهم عاليا مفيدا ذاعت سمعتهم وطارت شهرتهم

ما كان جزائري القرن التاسع عشر يعتز به من معارف، وهذه المعارف كانت تكاد تنحصر في العلوم الدينية واللغوية بالإضافة الى شيء من العلوم الطبيعية والتاريخية والتنجيم .

3 - الحياة الخلقية والفكرية قبل الاحتلال :

ومهما يكن من مستوى العلوم في الجزائر قبل الاحتلال فقد كان الشعب الجزائري سواء كان في الحاضرة ام في البادية ، يولي عناية بالغة لمسائل التعليم وكانت الاسر تشجع ابناءها على بذل الجهود والمواظبة في الدراسة ، وقد لاحظ المؤرخون الفرنسيون باستغراب عدد التلاميذ الكبير بالنسبة الى عدد السكان . وقد شهد كل من الجنرال ولسن استرهازي واسماعيل اوربان Welsen Esterhazi et Ismail Urbain ان الجزائريين الذين يحسنون القراءة والكتابة ، كانوا في ذلك العهد اكثر عددا من الفرنسيين الذين كانوا يقرأون ويكتبون ، ولاحظ الاثنان ان 45 في المائة من الفرنسيين كانوا اميين حينذاك . وان الجزائر احتلها جنود فرنسيون من طبقة جاهلة تمام الجهل يعنيان بذلك طبقة الفلاحين ، ثم استطرد المؤرخان : يقولان : يجب علينا ان نعترف احتراما للحقيقة ان المسلمين في افريقيا الشمالية رغم انخفاض مستوى العلوم فيها وقلة الكتب كانوا يولون مسائل التربية والتعليم عناية لها قيمتها .

ولهذه الحالة الفكرية والثقافية مؤثرات سياسية عميقة لان التعليم كان من اقوى العناصر تضييدا للمقومات الخلقية والدينية . وان المدارس كانت تعطي تلاميذها تربية تعزز في نفوسهم سلطان الاسلام وتمكنهم من تعلم المبادئ الخلقية الفردية والاسروية التي من واجب كل مسلم ان يكون متحليا بها .

فالتعليم الاسلامي الجزائري كان اذن يكسب الجزائريين حياء في تصرفاتهم وصراحة مع ليونة في معاملاتهم وطهارة ودمانة في اخلاقهم ونزاهة وإخلاصا في علاقتهم الاجتماعية كما كان يشير في نفوسهم حب الفضيلة وتقديرها واحترام الغير من البشر وخشية الله في جميع احوال حياتهم . وفي الوقت نفسه كان يؤدي الى توطيد عواطف التضامن بين افراد الاسرة الجزائرية كما كان يؤدي الى توحيد الافكار في مجتمع كثيرا ما كان قد اشتهر باختلافاته السياسية في الماضي القريب .

واصبح الذين يستمعون الى دروسهم من الطلبة يستحقون لقب **العلمه** عند ما ينتهون من دراستهم . وعدد طلبة التعليم العالي كان يتراوح ما بين 600 و700 طالب في كل ناحية .

وشيوخ التعليم العالي كانوا يتفاضون من الاوقاف وراتب فوق رواتب زملائهم من التعليم الثانوي وكانوا في الاوساط الجزائرية موضوع احترام عظيم من طرف كافة مواطنيهم .

اما مراكز التعليم العالي الشهيرة في الجزائر فهي :

1 - في ناحية **وهران** ، الجامع الكبير بتلمسان ، وجامع سيدي العربي وزاوية اسرة الامير عبد القادر .

2 - في ناحية **الجزائر** ، زاوية القليعة وزاوية مليانة وزاوية ابن محيي الدين وزاوية بنى سليمان .

3 - في ناحية **قسنطينة** ، جامع سيدي الاخضر في المدينة نفسها وزاوية سيدي عقبة وزاوية ابن علي الشريف .

وكان التعليم العالي في الجزائر يشتمل على خمس مواد رئيسية ومواد تكميلية ، اما المواد الرئيسية فهي :

1 - النحو والصرف

2 - الفقه من حيث هو فرائض دينية ومن حيث هو قواعد اجتماعية وقانونية

3 - التفسير

4 - الحديث

5 - علم الحساب وعلم الفلك

والمواد التكميلية هي : التاريخ والطب . وفي هذا الصدد كثيرا ما كان الشيوخ يشرحون لطلبتهم تاريخ ابن خلدون وروض القرطاس وكتبا من مؤلفات ابن سينا وبعض الكتب في الطبيعيات .

ومما يجدر التنبيه اليه هو ان جميع الكتب التي كانت تشرح للطلبة الفت في القرون الوسطى شأن الجزائر في ذلك اثناء القرن التاسع عشر كشأن جميع البلاد الاسلامية . وذلك لان الجزائريين كثيرهم من المسلمين في عصر الانحطاط الفكري والسياسي كانوا يستهدفون من التعليم تهذيب النفوس وتربية الناشئة وتحليلتها بالاخلاق الطيبة الظاهرة لا البحث العلمي ، وتوسيع آفاقهم الثقافي . ولنا في كتاب الامير عبد القادر «ذكرى العاقل وتنبية الغافل» مقياس يدلنا على

فذلك أمر يعود الى العالم الإسلامي بأجمعه ، الذي لم تكن الجزائر الا جزءا منه والذي كثيره ، من الدول الاخرى عرف مراحل مختلفة في حياته ، عرف الازدهار في المدنية وعرف كذلك الانحطاط حسب سنة الله في خلقه .

ولكن ان لم تتبلور الحياة الادبية والعلمية في الجزائر خلال القرن التاسع عشر في كتاب وشعراء وعلماء جزائريين من امثال فكتور هيجو Victor Hugo ورينان (Renan) وكلود برنار Claude Bernard فقد كان الشعب الجزائري متمسكا بأسمى القيم البشرية وأوفرها نبلا وأكثرها تقديره للثقافة والتربية ورجال العلم .

وهذا يفند تفنيدينا قاطعا الاساطير التي ما أكثر ما روجها اعداء الجزائر المفروضون الذين وصفوا الشعب الجزائري بالجهل والامية بل بالوحشية والذين يزعمون ان الاستعمار هو الذي أنقذه بفضل ما اسدى اليه من علوم ومعارف ، من ظلمات الجهل .

ومما يبرز كذلك جليا ظاهرة التمدن والحضارة الراقية عند الجزائريين تعاملهم مع كافة المسلمين كيفما كانت نزعاتهم المذهبية وحتى مع غير المسلمين من «اهل الكتاب» يهودا كانوا ام نصارى ، فالأتراك كانوا ينتجون الى مذهب ابي حنيفة واغلب الجماهير الجزائرية كانوا يتحاكمون في قضاياهم الى قاض ملكي والمزابيون كان لهم قضاة أباضيون كما ان لليهود حاخامين. اصف الى هذا ان اليهود كانت لهم مدارسهم الخاصة يسيرونها بانفسهم ويتعلمون فيها العبرية و«المهد العتيق» كما كانت لهم معابدهم ، وللمسيحيين كنائسهم يقومون فيها احرارا بشعائهم الدينية .

4 - اشرف الشعب بنفسه على المؤسسات الدينية والتعليمية :

لقد حاولنا في الفقرات التي تقدمت اعطاء صورة صادقة عن الحياة الثقافية الاسلامية في الجزائر المستقلة وعن مكانة اللغة العربية وتعليمها في المجتمع وحاولنا

هذا وان المعلمين كانوا احرارا حرة كاملة بالنسبة الى الحكومة . وان لم يكونوا يتعاطون السياسة ، متجنبين التدخل في تصرفات الحكام ، فلم تستطع الحكومة من جهتها استعمالهم ابواقا لمصلحتها ، وآلات لاغراضها السياسية . وعزلهم او نقلهم من مدارسهم كان امرا خطيرا جدا لانهم كانوا يملكون النفوذ الذي يجعلهم يؤثرون معنويا وفكريا في الآباء ، وكثيرا ما كانت دعايتهم ناجحة ضد من اضطهدهم من اصحاب السلطة .

وقد ذكر الاستاذ امريت (Emerit) ان أحد الخبراء في علم الاجتماع كان مستوطنا البلدية سنة 1842 ، كتب عن اخلاق الجزائريين ما ترجمته :

«ان سكان الجزائر في العموم اقل عصبية من كثير دول جنوب اوروبا ، وشعورهم بوجود الله ، شعور حي ، متقد ، ولكنه في نفس الوقت اكثر نبلا ، واشد سموا مما عساه قد يكون عند غيرهم من الاوربيين المسيحيين ، الذين كثيرا ما اضطدموا خلال حروب دينية طاحنة شهيرة) وهناك شيء اكثر استحقاقا لتفديس العرب من الجهاد الا وهو السلم او العافية.. وحاجة الفقراء الى الحياة اقوى من كل ما يعتريهم من الالهواء . وكثير من الكتاب الفرنسيين - حسب امريت Emerit يشهدون بان الجزائريين مسالمون ، وان الكفاح ضد فرنسا في اوائل الاحتلال لم يكن يكتسى صبغة حرب صحيحة ، اى صبغة جهاد ، بل كان حركة صمود في وجه جيش دولة اجنبية غازية لم يجدوا مبررا لاستسلامهم اليها في ارض وطنهم ، وعقر دارهم .

لقد استندنا في كتابة الفقرات السالفة على شهادة كتاب ومؤرخين فرنسيين لنبيرز بنزاهة وموضوعية لا تشوبهما شائبة مبلغ الحضارة الروحية والاجتماعية التي وصلت اليها جزائر ما قبل الاحتلال .

وان كانت الحياة الادبية والعلمية في الجزائر ، حياة متواضعة دون مستوى بعض البلاد الاوربية ،

(1) الحالة الفكرية والمعنوية في الجزائر سنة 1830م. من مجلة التاريخ الحديث والمعاصر عدد أشهر جويلية الى سبتمبر سنة 1954 .

M. Emerit, L'Etat intellectuel et moral de l'Algerie en 1830 in ; Revue l'Histoire mod. et contemp. juillet sept. 1954, pp. 129 - 211

في نفس الوقت التعريف بالنفسية الجزائرية التي لم تكن تختلف كثيرا عن نفسية سائر المسلمين العرب من البلاد الاخرى .

ثم بينا مستشهدين بآراء علماء فرنسيين ان الشعب الجزائري كان شعبا مهذبا متشبثا بالمبادئ الخلقية انسانية يحسن معظم ابنائه القراءة والكتابة ويكتسب الكثير منه ثقافة عربية اسلامية لها قيمتها .

ويستخلص من هذه الدراسة ان المؤسسات الدينية كالمؤسسات التعليمية يعود الفضل في انشائها وتسييرها والانصراف والسهر عليها الى الشعب ومثليه الدينين والاجتماعيين لا الى الحكومة التركية التي لم تكن تتدخل في شؤونها الا لاجل مراقبتها من الناحية السياسية .

وهذه الخاصية اكسبت المؤسسات التعليمية حرية عظيمة ونفيسة بالنسبة الى السلطة التركية بحيث جعلتها في غنى عنها لا في الميدان المادي فحسب ولكن حتى في الميدان الاجتماعي والفني .

5 - معارضة الاستعمار للتعليم الوطني العربي :

وهكذا تمكنت المدارس الجزائرية من مواصلة مهمتها بعد الاحتلال الفرنسي وسقوط حكومة الداي التركية سنة 1830 ، سيما وان الفرنسيين كانوا لا يبالون اثناء العشرين سنة الاولى بتعليم الجزائريين حيث كان شغلهم الشاغل الغزو والعمليات العسكرية ، وان اولوا من حين لآخر عنايتهم لهذا التعليم فليقاوموه ويقضوا عليه لانهم كانوا يرون في المدارس الجزائرية ملاحجاً للوطنية وحصونا يتأهب فيها المناضلون للجهاد ضدهم فموقفهم ازاءها كان ويظل موقفا سلبيا معاديا .

اضف الى ذلك شره المستعمرين واستعدادهم للاختلاس ، فوجدوا في اموال الاوقاف غنائم سهلة فأكبوا عليها كالوحوش المفترسة يفتصبون وينهبون ، سيما وان السلطة العسكرية الفرنسية تواطت معهم واوصدت ابواب جميع المدارس تاركة المجال خاليا للذين اصبحوا يعبثون بتلك الاموال ويبدرونها ، الامر الذي جعل المعلمين يهجرون الاراضي المحتلة ويلتحقون بالنواحي التي لا زالت مستقلة خاضعة لحكم الامير عبد القادر . نذكر من بين هؤلاء المهاجرين المعلم **قدور بن محمد بن رويلة** الذي غادر العاصمة الجزائرية والتجأ الى مليانة اولا ثم تطوع في صفوف انصار الامير وانضم الى اخوانه يكافح على جوزة الوطن . ولابن رويلة ترجمة لحيات الامير الجزائري لا يستهان بقيمتها الادبية .

ولكن السلطة الفرنسية لم تستطع ان تتحدى طويلا في ضلالها وان تصر على منع التعليم الجزائري ، فعدلت عن موقفها العدائي تحت ضغط الجزائريين واضطرت الى ان تعترف به سنة 1847 .

غير انها في نفس الوقت شنت ضده حرب انتحديت والافتزازات والعراقيل الادارية والاقتصادية . ورغم ذلك كله حافظ الشعب الجزائري على مؤسساته الثقافية والدينية شعورا منه ان في بقائها ضمانا لمقوماته الوطنية وشخصيته الاسلامية العربية .

وهكذا اصبح التعليم الجزائري الوطني بين مد وجزر ينمو ويزدهر حيث يكون نفوذ الاستعمار ضعيفا ووطاته خفيفة ويتخلف وينخفض حيث يتفشل الحمل وتفتر الطاقة . وعلى هذا الاساس نلاحظ عدد المدارس والتلاميذ ينحدر في شمال الوطن ويتضاعف شيئا ما في الجنوب ولكنه كان بوجه الاجمال في انخفاض مستمر بحيث ان عدد الزوايا (الزوى) سقط حسب الاحصاءات التي وضعتها الحكومة الفرنسية سنة 1871 الى 2.000 وان عدد التلاميذ انحط الى 28.000 تقريبا .

ولكن رغم التخلف العام في التعليم شهدت الجزائر المحتلة انشاء زاوية كبيرة **بالهامل** قرب مدينة بوسعادة في جنوب عمالة الجزائر سنة 1863 . وكانت تلك الزاوية تعتبر في مستوى التعليم الثانوي لانها لم تكن تقبل بين الطلبة الراغبين في الالتحاق بها الا حملة القرآن .

ومهما يكن من امر فقد ظلت الزوايا الى سنة 1891 المراكز الوحيدة التي كان يمكن للصبيان الجزائريين اغتراف المعارف منها . هذا ما يستخلص من البحث الذي قامت به لجنة الشيوخ التي اوفدها البرلمان الفرنسي للاطلاع على حالة الجزائريين . وعلى اثر جولاتها كتب احد اعضائها وهو مستشار الدولة السيد ليون بيكي (Léon péquet) ما ترجمته : « ان التعليم في الجزائر الآن سنة (1891) قائم تحت اشراف الاهالي انفسهم ، والزاوية حيث يتعلم فيها التلاميذ القرآن وشرحه هي المؤسسة التعليمية الوحيدة في المستعمرة .»

6 - التعليم الفرنسي من 1883 الى 1901 :

وهكذا يبدو جليا ان الحكومة الفرنسية ، اربعين سنة بعد ان احتلت الجزائر ، لم تعتن بكمية جدية بتربية الاطفال الجزائريين وتعليمهم ، اللهم الا ما كان من محاولة الامبراطورية الثانية التي كانت تعترف

الإشارة الى ما تركته هذه الثورات من الضحايا في النفوس ومن المرارة والغضب في القلوب .

ومهما يكن من شيء فلقد كان يبدو اثر هذه المآسي كلها ان الجزائريين فهموا ان العنف لا يؤدي بهم في تلك الظروف الى التحرر وانه من الاجدر موقنا ان ينتهجوا منهج التعلم وطلب المعرفة ريثما تسمح لهم المقادير بالفرصة التي يكون فيها انحلال النهائي .

ومما زاد في تشجيعهم على سلوك هذا السبيل الجديد بعض البوادر التي كانت قد برهنت على استعداد طائفة من الفرنسيين المسؤولين لتوسيع نطاق التعليم للاطفال الجزائريين . فالبادرة الاولى هي صدور مرسوم 13 فبراير 1883 الذي نص على تطبيق القوانين التي تفرض مجانية التعليم على الفرنسيين وعلى الجزائريين ، بيد ان مرسوم التطبيق الجزائري لم يشمل البنات .

والبادرة الثانية هي زيارة لجنة الشيوخ للجزائر سنة 1891 للبحث عن الاجراءات التي ينبغي اتخاذها لتحسين حالة الجزائريين ماديا ومعنويا ، فنجم عن هذه الزيارة بعض الارتياح وبعض الامل في الاوساط الجزائرية . وكان من نتيجة ذلك ان ارتفع عدد التلاميذ الجزائريين المنخرطين في التعليم الابتدائي الفرنسي من 3.182 سنة 1882 الى 19.885 سنة 1896 ، فكانت اذن خطوة لا بأس بها في حد ذاتها ولكنها كانت متواضعة جدا بعيدة عن الواقع وعن حاجيات الجزائريين . ففي سنة 1889 نلاحظ ان عدد الاطفال الذين يتراوح سنهم ما بين 6 و13 سنة كان 525.389 بينما عدد المسجلين 10.631 فكانت النسبة اذن 2٪ .

والواقع ان تحمس الجزائريين للتعليم على اثر صدور مرسوم 1883 سرعان ما اخذ في الفتور لان الناس اكتشفوا ان الحكومة كانت تضرر سياسة التحجيل في الوقت الذي كانت تتشدد علنيا فيه بسياستها التحضيرية . وهذا النفاق في التعليم كان يتبلور في البرامج المخصصة للمدارس الاهالي والتي كان مستواها دون مستوى برامج ابناء الفرنسيين كما كان يتجسم في عدم تعليم العربية فلذا كان الجزائريون يهتمون بالحكومة الاستعمارية ، بالسعي في تصير التلاميذ وفرستهم .

فلا غرابة اذن الا تزيد بكيفية مستمرة نسبة التلاميذ الجزائريين في المدارس الفرنسية مع السنين سيما وان الفرنسيين كانوا يضمنون على تعليم الاهالي بما يحتاج اليه من الاعتمادات المالية . فالمقارنة بين

للجزائر بنوع من الشخصية في اطار سياسة المملكة العربية الجزائرية والتي ارادت ان تجعل لتعليم اللغة العربية مكانة في المدارس الرسمية الثلاث وللتعليم الاسلامي العالي ، وفي المدارس الابتدائية «الفرنسية والعربية» ، اما المدارس الرسمية وللتعليم الاسلامي العالي وهي ثلاث : الواحدة في قسنطينة والثانية في تلمسان والثالثة في المديّة ، (تم حولت الى الجزائر العاصمة) فقد انشأها مرسوم 30 سبتمبر 1850 لاجل تكوين - على حد تعبيره - موظفين من الاهالي ليشغلوا - وظائف في الدين وفي القضاء الاسلامي وفي التعليم الاهلي وفي المكاتب العربية .

واما المدارس الابتدائية فقد انشأها مرسوم 24 جولييت سنة 1850 في النواحي الشمالية اي في النواحي التي استحكم فيها الاستعمار . ولكن عددها كان قليلا جدا بحيث لم يتجاوز الاربعين مدرسة سنة 1865 ولم يتعد عدد اقسامها قسما صغيرا بكل مدرسة . ولكن على اثر ثورة 1871 اوصدت الحكومة الفرنسية ابواب معظمها بدعوى ان تلامذتها كانوا من بين المتآمرين على النظام الاستعماري والمساهمين في الثورة . وما بقى منها بدأ يتقلص شيئا فشيئا حتى تعفى اثره سنة 1883 . وفي واقع الامر ، لم يكن الجزائريون يرتاحون الى التعليم الفرنسي لانهم كانوا يعتبرونه آلة لمحاربة مقوماتهم الوطنية ولان جروحهم لم تكف تأخذ في الالتحام حتى تصيبهم عاصفة اخرى من الفتك والتفكيك والبطش والتعذيب .

والحقيقة ان اصطدام الشعب بالجالية الفرنسية والجيش حاميا سنة 1871 خلف نتائج تهادى اثرها مدة عشرات السنين على الاقل في الجزائر . ولا ننسى مختلف انواع القمع التي استعملها الاستعمار ضد الجزائريين بعد ثورة المقراني . فمن تفكيك القبائل واجلائها عن اراضيها الى نفي الوطنيين الى جحيم كليدونيا الجديدة LA Nouvelle Calédonie الى اغتصاب اراضي الفلاحة واختلاس الارزاق ومنع حرية التنقل للجزائريين ، ولنا لم تكن حينذاك مشاكل التعليم تتبوا المكان الاول في عناية الجزائريين الذين كانوا يفكرون في مشكل اشد خطرا ، الا وهي تلك المأساة الحيوية التي كان يجتازها الشعب باسره والتي كان يتوقف على حلها مصيره بل وجوده في ارض وطنه . فلا غرابة اذن ان تنجم عن تلك المأساة عدة من الثورات . الاولى منها ثورة العمرى سنة 1876 ، ثم تلتها ثورة الاوراس سنة 1879 ثم ثورة «بوعمامة» سنة 1881 . ولسنا في حاجة الى

التلاميذ الفرنسيين والتلاميذ الجزائريين تعطينا سنة 1901 أي في أوائل هذا القرن الجدول التالي :

النسبة المئوية	المسجلون في المدارس	من هم في سن الدراسة	
3,8%	245.650	6.331.900	الجزائريون
84%	78.531	93.531	الأوربيون

سنة 1904 كان عدد الناجحين في شهادة الدروس العليا للمدارس II .

سنة 1906 كان عدد الناجحين في شهادة الدروس العليا للمدارس I2

سنة 1908 كان عدد الناجحين في شهادة الدروس العليا للمدارس I2

سنة 1911 كان عدد الناجحين في شهادة الدروس العليا للمدارس I5

وأما فيما يخص قيمة تعليمها من حيث المستوى ، فالامر يعود هنا الى شخصية الطلبة والى مواهبهم والى الظروف السياسية التي عاشوا فيها . ولكن في الاجمال لم يكن تعليم المدارس قيميا ، لانه كان قديما في اسلوبه جامدا في روحه . واذا جمع التعليم بين التقدم في الاسلوب والخلو من الروح الوطنية الاسلامية صار ينحصر في شكليات وعبارات خالية من المفاهيم الصحيحة والعواطف المنعشة السامية . فلا هو يكسب الطالب المؤمن علما قديما ولا هو على غرار المناهج العصرية ينمي الفكر ويشير غريزة الاطلاع والاكتشاف ويجعل من الطالب رجلا مسائرا لعصره عالما بتيارات زمانه . نعم لقد تخرج من المدارس مواطنون تجلت مقدراتهم وظهر علمهم ولكنهم اقلية مدينة ببضاعتها لجهودها الخاصة لا لتكوينها المدرسي .

ومهما يكن من شيء فلم يكن يتخرج من المدارس العدد الكافي لنشر العربية في الابتدائي وللقسام بوظائف الدين والقضاء في آن واحد .

8 - تقهقر التعليم الجزائري القديم :

أما التعليم التقليدي الاسلامي فقد ظل منحصرًا في الكتابات القرآنية وفي المساجد الكبيرة ، ولكن عدد

هذا مع ان الجزائريين كانوا يساهمون بنسبة 30% من الضرائب في دخل الخزينة العامة وبنسبة 18% في دخل صناديق العمالات وبنسبة 80% في دخل البلديات .

وهذه السياسة العنصرية المتحيزة لغير المسلمين من الجزائريين ومستوطنى الجزائر عبر عنها ببلاغة الكاتب الفرنسي ن رينق (N de Ring) في مقالته : «المعمرون الفرنسيون في الجزائر والمدارس الاهلية» (I) حيث قال : «هناك فكرة راسخة رسوخ الجبال في عقول المعمرين والناطقين بلسان حالهم ، وهي انه لهم ولليهود الاستفادة مما تأتي به الضرائب من اموال كيفما كان مصدرها . واما الجزائريون المسلمون ، فما عليهم الا الاداء والصبر» .

وما نفور الجزائريين من التعليم كما أسلفنا ذلك الا لان البرامج كانت خالية من تعليم العربية ، وبالرغم من ان مرسوم سنة 1883 المطبق اجبارية التعليم على الجزائريين ومجانته ينص بضرورة تعليم «الفرنسية والعربية في المدارس الاهلية» فان السلطات الفرنسية في الجزائر التي كانت تتواطأ مع المعمرين بذلت كل ما في وسعها لمنع تعليم العربية بدعوى عدم وجود العدد الكافي من معلمى العربية .

7 - المدارس الرسمية الثلاث للتعليم الاسلامي العالي:

وهؤلاء المعلمون هم الذين تخرجوا من المدارس الرسمية للتعليم الاسلامي العالي التي احدثها مرسوم سنة 1850 بيد ان عددهم كان قليلا جدا بحيث لم يكن كافيا حتى للمناصب الدينية والقضائية الاسلامية . وفيما يلى بعض الارقام تدل على تفاهة قيمة تلك المدارس من حيث الكم :

1) N. de Ring : Les Colons français en Algérie et les écoles indigènes

حوادث وكوارث . فاحتلال فرنسا لتونس سنة 1881، واحتلال الانجليز لمصر اثر ثورة عربي باشا سنة 1882 كان لهما اثر سيء في الجزائر فتأملت عليهما تألما علي فشل ثورة «بوعامة» في شهر ابريل من سنة 1881.

9 - حيوية الشعب الجزائري واعتصامه بمبادئه الثقافية والمعنوية :

ان الشعب الجزائري كان يشعر في سريرة نفسه ان مصيره مرتبط بتطور العالم عامة وبمسير العالم العربي خاصة . فلذا كان متتبعا للاحداث متطلعا الي كل ما من شأنه ان يبعث الامل في قلبه . وكانت صفوة من الجزائريين قليلة العدد عظيمة التأثير تقرأ بمواظبة «المنار» وهي مجلة اصلاحية أسست سنة 1898 واكتسبت شهرة قليلة المثل في العالم الاسلامي باسره بفضل عنايتها بكل ما كان يمت الي صالح الشعوب العربية من قريب او من بعيد ، وكانت بالطبع تولى شؤون افريقيا الشمالية اهتماما فائقا وتنتشر على صفحاتها مقالات مركزة لا تتحرج فيها عن انتقاد سياسة فرنسا في الجزائر .

وبالاضافة الي تأثير الصحافة الشرقية في نفوس الجزائريين كانت زيارات زعماء انغوية للوطن تخلق جوا معنويا مفعما بالحماس والامل شأن زيارة ~~مستفي~~ ^{مريديا} كقطر رئيس الحزب الوطني المصري للجزائر سنة 1902، وشأن كذلك زيارة العاصمة الجزائرية من طرف الشيخ الاصلاحى الشهير الامام محمد عبده سنة 1903 .

وما دمنا نذكر عناصر توعية الجماهير الشعبية في الجزائر فلا ينبغي ان ننسى الثورة التي قامت بها تركيا الفتاة سنة 1908 والتي كان لها صدى بعيد في اوساط الشبيبة الجزائرية ، كما لا يجب غض الطرف عن الاكتسابات التي حظي بها العمال الجزائريون الذين هاجروا الي فرنسا بفضل احتكاكهم بالحركة العمالية الفرنسية وعن الدعاية التي تولتها حركة السلفيين بواسطة دعائها وبواسطة الحجاج والصحافة العربية كمجلة المنار الآنفة الذكر .

فلا الشعب الجزائري تطورت نفسيته على ممر الايام وصار يرتاح لوجود الجالية الفرنسية في بلاده ويطمئن لها ولا هي كانت تثق فيه وتلتصق صداقته ومودته، فالفرنسيون ظلوا يرون في الجزائريين أعداء لا بد ، طال الزمان ام قصر ، من اخضاعهم بكيفية تقضى على آمالهم التحررية قضاء نهائيا يمكنهم بالتمتع بطيب

الكتاتيب اخذ ينخفض شيئا فشيئا نتيجة اغتصاب اموال الاوقاف من طرف الحكومة الفرنسية ومن جراء العراقيل التي تنوعت في اختلاقها في سبيله كما اخذت تنخفض قيمة المعلمين العلمية والمعنوية . وبالاجمال يسعنا ان نقول : ان تعليم اللغة العربية والمواد الاسلامية صار يتقلص قليلا قليلا في سائر البلاد واصبحت الامية ضاربة اطنابها في كل بقعة من الوطن الجزائري .

ويجدد بنا ان نتذكر اننا بصدد دراسة اواخر القرن التاسع عشر واول القرن العشرين اي في العهد الذي بلغت فيه سلطة الجالية الفرنسية في الجزائر اقصاها والذي وجد الشعب الجزائري نفسه فيه محروما من سائر وسائل الكفاح المادية ، لان الاستعمار ، بعد ان عرض له مختلف انواع الاضطهاد ، اغتصب منه كل ما بقى له من الرزق . فاصبحت الصدمة الاقتصادية التي اصابته اشد وطأة عليه من الصدمة العسكرية . اضاف الي ذلك ان طبقة الاشراف المعروفين بالمرابطين في لهجة الجزائر العامة والذين كانوا يعتبرون رموزا للصدود ضد العدو المحتل والذين جعلوا من زواياهم ملاجئ لرجال الجهاد المادي والمعنوي اصبحوا فيما بينهم يتنازعون ، وعلى اكتساب مرضاة السيد المستعمر يتنافسون . وذلك لان سياسة التفرقة الاستعمارية التي كانت تخبط رئيس زاوية بخصمه احطت من معنوية الجميع ، الامر الذي جعلهم مع الاستعمار يتواطئون، واليه يتملقون ، املا في ان يترك لهم المجال خاليا لنشر دعايتهم وجمع الاموال من الشعب .

واما رجال الدين من مفتين وائمة وقراء القرآن (الجزابيين) ورجال القضاء من عدول «وباش عدول» وقضاة سواء كانوا قد تخرجوا من المدارس الرسمية للتعليم الاسلامي ام لا فقد كانت - اللهم الا من شذ منهم ونذر - معنويتهم احط وانقيادهم لاوامر الاستعمار اكمل .

كل ذلك ادى الى ركود لدى رجال السياسة وجمود عند رجال العلم والتعليم وازمة عامة في الميدانين الاقتصادي والمعنوي .

غير ان الشعب الجزائري ، رغم كل ما كان يكابده من عذاب ويعانيه من اضطهاد ويتحسر منه من خيبة ناجمة عن فشل بل عن خيانة من كان فيهم وانقا ، وعلى وعيهم مستندا . ظل في وجه الاستعمار صامدا، وليادته ووطنه وافييا ، ورغم جهود الاستعمار وحيله لفصل الجزائر عن العالم وعزله عن البلاد الاسلامية فقد كان يتسرب اليه خبر ما كان الاسلام يهتز به من

العيش في أرض احتكروا أرواقها لأنفسهم وسخروا سكانها لخدمتهم ، والجزائريون ما فتئوا يفكرون في يوم الحرية والخلاص . فكانت بين الجانبين حرب بيكولوجية مستمرة تكتسى الوانا واشكالا . فتارة تنفجر وتتحول الى اصطدام دموي عنيف ، وتارة تقتصر على ميدان الثقافة والدين والعلم وتظهر في مظهر هادئ ، سلمى .

وكان الجو لا يكاد يصحو قليلا حتى تحدث حادثة تعكر حالة العلاقات بينهم من جديد . فالنفوس تتور ، والضغائن تتضاعف والعداوة تشتد . ذلك ما وقع مثلا على أثر ثورة بوعمامة سنة 1881 وما حدث بعد احتلال ناحية المزاب في جنوب العمالة الجزائرية سنة 1882 واحتلال عين صالح سنة 1900 وفرض الحماية على المغرب الأقصى سنة 1912 .

ومما يدل على البون الشاسع بين الجالية الفرنسية والشعب الجزائري ما كتبه موريس بولار سنة 1910 في كتابه «تعليم الأهالي في الجزائر» (I) :

«ومن بين الأربعة ملايين والنصف كم ادمجنا في حضارتنا خلال تسعين سنة من جزائري مسلم . لقد نكون بالغنا اذا قدرناهم بالمائة فرد وهؤلاء الجزائريون الذين استعاروا في الظاهر عوائدنا واسلوب عيشنا وصاروا موظفين واطباء ومحامين لم يندمجوا في فرنسا الا سطحيا لانهم لم يكتسبوا نفسية فرنسية» .

وهكذا أصبحت العلاقات بين الجزائريين والفرنسيين تتأزم من خطر الى اخطر حتى حولت تدريجيا نوع الكفاح ونقلته من الميدان الاجتماعي الذي كان قد انتهى اليه الى الميدان السياسي .

10 - خيبة الشعب الجزائري بعد الحرب العالمية الاولى:

ومما زاد الحالة تفاقما ، الخيبة التي اعترت الشعب الجزائري اثر حرب 1914 - 1918 والتي كان شارك فيها مشاركة فعالة بجانب فرنسا وتحمل اثناءها اجسام التضحيات ، املا منه في ان تتحقق بعد انتصار الحلفاء المتوقع مظامحه وآماله ، ولما اكتشف الجزائريون انه لم يكن في نية فرنسا الوفاء بعهودها ، شمل الشعب بأسره ، استياء عظيم سيما وانه كان ينتظر من الحكومة الفرنسية ان توفى على الاقل بوعودها في الميدانين الاجتماعي والثقافي لان التجربة أصبحت تبرز لديهم جليا ما للثقافة العصرية العلمية والتقنية من قيمة ،

رافية، اذ لا بد من الايام بها بصفتها اداة خليقة بتنوير عقول رجال القرن العشرين وتربيتهم ، وبصفتها سلاحا حديثا ضروريا للكفاح الوطني التحرري .

ولم تكن رغبتهم في تعلم الفرنسية تتنافى مع رغبتهم في تعلم لغتهم الوطنية . غير ان فكرة الازدواجية فيما يخص معرفة اللغات امست في جزائر اوائل القرن العشرين امرا يشعر بضرورته كل جزائري واع . ولكن الفرنسيين بعد نشوة انتصارهم في الحرب العظمى ، أصبحوا يعتقدون ان افريقيا الشمالية قد ابيدت نهائيا من الخريطة الجغرافية باعتبارها بلادا عربية اسلامية، وان فرنسا لا محالة ناجحة فيما فشلت فيه قبلها روما القديمة من ادماج وتنصير جميع المغاربة من سوس الى قابس .

ففي الوقت الذي صار فيه الجزائريون يفكرون من جديد في الوسائل التي بفضلها يتحررون من الاستبداد الاستعماري اى في الوقت الذي ظهرت فيه اسطورة الجزائر الفرنسية على وجهها الحقيقي ضاعف فيه الفرنسيون مجهوداتهم ، ليبرهنوا للعالم ان سياستهم الادماجية قد نجحت .

فمن الاحتفالات التي نظموها في الجزائر سنة 1930، بمناسبة الذكرى المئوية للاحتلال ، الى عقد مؤتمر الاساقفة المسيحي بقرطاج في تونس الى الظهير البربري في المغرب ، كل هذه المظاهرات كانت ترمي الى اعطاء النجحة القاطعة ، ان السيادة الفرنسية قد فرضت بصفة دائمة مؤيدة على افريقيا الشمالية ، وان مصير الجزائريين والتونسيين والمغاربة ، امسى موصولا لا بمصير فرنسا فحسب ، ولكن حتى بمصير المدنية المسيحية اللاتينية .

بيد ان الجزائريين كغيرهم من المغاربة في المغرب العربي الكبير رأوا في تلك المظاهرات تعديا على كرامتهم وعلى شخصيتهم ، واصبحوا يبحثون عن رد الفعل الذي يفضله يصونون مقوماتهم وكيانهم المعنوي ، ويبينون مستقبلهم ومستقبل ابنائهم .

11 - نشأة جمعية العلماء - تطورها ومبادئها :

ففي ذلك الجو السياسي نشأت فكرة حركة العلماء الجزائريين وتنظيم التعليم العربي الحر العصري قصد تلافي نقصان التعليم الرسمي الفرنسي ونشر اللغة

1) Maurice Poulard, L'enseignement pour les Indigènes d'Algérie, alger, 1910

يتجرون بها ويرتزقون بفضلها ، كما حداها الى تحريم عبادة الاولياء الذين اصبحت ذريتهم تتعامل مع الاستعمار لاستغلال الشعب .

لقد يبدو من البديهي ان برنامجا مثل هذا لم يكن من السهل تطبيقه في الجو الجزائري في السنوات التي تقدمت الحرب العالمية الثانية لان كلا من الاستعمار الفرنسي وجماعة رجال الدين الرسميين وجماعة المرابطين اكتشفوا الخطر الذي اصبحت يهددهم جميعا من طرف العلماء ، فالقوات الثلاث تحالفت للقضاء على حركة جمعية العلماء قبل ان تقضى هي عليها .

ولكن الشعب بفضل وعيه الحاد احس سريعا ان خلفاء المخلصين هم العلماء فانضم اليهم يؤيدهم ويناصرهم فقامت في الميادين الادارية والدينية والاجتماعية والسياسية حرب شعواء بين الجانبين .

ومما زاد حركة جمعية العلماء قوة وانتشارا في البلاد حالة المثقفين بالعربية الذين لم تدع لهم «الجزائريين» مجالا لاكتساب رزقهم في اطارها بكيفية شريفة ، فبطبيعة الحال لم يجد هؤلاء الرجال بدا من ان يلتحقوا بصفوف العلماء وينشروا دعاياتهم في مختلف الاوساط الوطنية ، وهكذا كان من حسن حظ الجزائر ان يتجدد لخدمة قضية الحق والعدالة والحرية ابناء لها يحسنون لغتها ويلمون بثقافة حضارتها .

اضف الى ذلك ان البون كان شاسعا جدا بين رجال جمعية العلماء ومستواهم الخلقى والعلمي ومستوى اعدادهم من اصحاب (الزوى) ورجال الدين الرسميين . فالحكومة الفرنسية في الجزائر بصفتها حكومة اجنبية طاغية مستغلة لم تكن تثق الا فيمن خفت بضاعتهم الثقافية ولانت طبائعهم الاخلاقية وانحطت قيمتهم المعنوية ، فلا غرابة اذا انخفض مع توالي السنين مستوى مناصريها من اهل الدين .

وفي هذا الصدد نستشهد ببعض الفقرات من مقال كان قد كتبه مدير الشؤون الاسلامية قديما السيد اوجيستان بيرك A. Berque في «مجلة البحر المتوسط» عدد 33 الجزء II من شهر جولييت من سنة 1951 تحت عنوان «صيادو الآلهة ، مرابطون وعلماء» .

يكتب الاستاذ بيرك (والد جاك بيرك العالم الاجتماعي والمستشرق الشهير) ما ترجمته :
«ومشكل العلماء لم يكن يكتسى تلك الحدود لولا تدخل فرنسا في شؤون رجال الدين الموظفين من طرف الحكومة . ولا زلنا نتذكر ائمة سنة 1900 الذين يقرأون

الوطنية في البلاد وتربية الناشئة على أسس اسلامية .
لقد أسس جمعية العلماء الجزائريين في شهر ماي من سنة 1931 ثلاثة رجال يختلفون في طباعهم وتكوينهم ويتحدون في اهدافهم ومبادئهم .

فالاول من مدينة قسنطينة ، رجل ذو ثقافة اسلامية متينة عرف بدمائة اخلاقه ورباطة جأشه وميله الى التفكير الطويل في الفلسفة وعلم الاجتماع ، هو الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي قام بالدور الاول في تأسيس الجمعية وتسييرها .

وثانيهم الشيخ البشير الابراهيمي اشتهر ببراعة قلمه وبلاغة لسانه وصبره ومواظبته على العمل رغم صحته الضعيفة وسائله الضئيلة .

والثالث هو الشيخ الطيب العقبي امتاز خاصة بفصاحة لسانه .

وبالرغم من ان جمعية العلماء كانت تنتمي من حيث مبادئها الى الحركة الاصلاحية الاسلامية العصرية المعروفة بالسلفية ، فاهدافها كانت بطبيعة الحال تقتصر اولا وقبل كل شيء على المسائل الجزائرية الصرفة . وان اكبرها الظروف على ان تتحاشى رسميا الخوض في السياسة فهي كانت في طليعة الحركات الوطنية المكافحة في سبيل التحرر . وعلى اي حال ، فجمعية العلماء كانت من اشد المنظمات الجزائرية خطرا على الاستعمار الادماجي ومن انجع الوسائل في الدفاع عن المقومات الاسلامية الوطنية .

ففي الميدان السياسي كانت جمعية العلماء تبذل منتهى الجهود لمقاومة سياسة الادماج ووقاية الجماهير الشعبية من شرها كما انها كانت تناضل في سبيل تربية الشعب وتنظيمه كي يقوم لمكافحة الاستعمار وتحرير البلاد وضم الجزائر الى سائر البلاد العربية . وتتلخص مبادئها في الشعار التالي المنسوب الى الشيخ ابن باديس وهو : الاسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا .

ونتيجة عن ذلك فقد كانت جمعية العلماء تعارض رسميا مرسوم 7 مارس 1944 القاضي بجعل الجزائريين فرنسيين .

اما في الميدان الاصلاحى فحركتها كانت ترمى الى تطهير الاسلام الجزائري من البدع المخالفة للدين الامر الذي حداها الى مقاومة فكرة الوساطة او الشفاعة التي كان بعض المرابطين واصحاب الطرق الدينية الصوفية

في العمل ، ولا خمودا في الهمة ، ولا فتورا في العزيمة . الامر الذي اكسبهم ثقة الشعب وتأييده .

12 - التعليم الوطني الحر - حركة العلماء التعليمية:

فتمكنوا هكذا من تأسيس عدة مدارس حرة صار التلاميذ يدرسون فيها ، بالاضافة الى المواد اللغوية والدينية ، الرياضيات والطبيعات والتاريخ والجغرافيا . والكل كان يلقن بالعربية رغم عدم تخصص اساتذتها . غير ان الحرب 1939 - 1945 جاءت واوقفت نشاط الجمعية التعليمية كما اوقفت دعائها السياسية . وما كادت الحرب تضع اوزارها حتى استأنفت جمعية العلماء من جديد عملها في جو اكثر حماسا وظروف اوفر مناسبة وذلك لان وعى الشعب الجزائري بلغ اقصاه ولان استعداده لخوض الكفاح وتحمل اثقل التضحيات وصل منتهاه .

فتصدى المسؤولون في سائر المدن الجزائرية لجمع تبرعات الشعب وبناء المدارس سيما وانهم وجدوا في البند 57 من قانون 30 سبتمبر 1947 مبررا شرعيا لنشر التعليم العربي . وذلك البند ينص بان «اللغة العربية اصبحت احدى اللغات الرسمية للوحدة الفرنسية وان تنظيم تعليمها في مختلف الاطوار سوف يشرع فيه» .

وما هي الا سنوات قليلة حتى شيدت مدارس عربية حرة في اكبر المدن الجزائرية وفي فاتح نوفمبر 1954 اي في اليوم الذي اندلعت فيه الثورة الجزائرية بلغ عدد هذه المدارس 150 معظمها يشتمل على اكثر من خمسة اقسام كما بلغ عدد التلاميذ الذين كانوا يختلفون اليها حوالي 45.000 تلميذا .

نذكر من بين هذه المدارس :

- معهد ابن باديس في قسنطينة .
- مدرسة دار الفلاح بوهران .
- مدرسة دار الحديث بتلمسان .
- مدرسة حي بلكور في العاصمة .

ان هذه المدارس من اكبر معاهد جمعية العلماء ، لانها تشمل جميع الاقسام الابتدائية ، وعلى قسم او قسمين او ثلاثة اقسام من الثانوي . وبرامج هذه الاقسام الثانوية كانت منسجمة مع برامج جامعة الزيتونة بتونس والى حد ما ، مع جامعة القرويين بفاس ، بحيث كان في وسع المتخرجين منها ان يواصلوا

تصوف الغزالي ويستطيعون ان يؤولوا تأويلا صحيحا البخارى ويتقنون فهمه كما كانوا يفهمون عن حقيقته فلسفة ما وراء الطبيعة لابن رشد . نعم ان علمهم في الدين والفقهاء كان مركزا مؤثرا دقيقا جلابا . وفي ظليعة هؤلاء العلماء كان السيد عبد الحليم بن سماية .

ان خطأ سياستنا الدينية في الجزائر اثناء العشرين سنة الاخيرة هو قبول بعض الموظفين الذين كانوا يتمازرون بجهلهم وشرهم ورغبتهم في الرشوة . وخصلتهم الوحيدة لدى الحكومة كانت تنجس في انقيادهم الاعمى اليها .

لقد يسهل علينا الآن ان نفهم لماذا نجح العلماء في محاولاتهم . ولقد شوهد مرة مفت يستفتي الطبيب العقبي عن خلاف فقهي سهل كان ائمة الاسلام قد سووه اكثر من مائة مرة غير ان ذلك المفتى كان دليلا يعمل لمصلحة الشرطة . وقد سمع ايضا مرة موظف ديني يرتكب ابشع الاخطاء اثناء اعمال مؤتمر مغربي ويشير هكذا ضحكا لا نهاية له من لدن زملائه المقاربة والتونسيين غير ان ذلك الموظف كان عميلا تستخدمه الحكومة لدعايتها الانتخابية .

وهكذا يظهر ان جميع الشروط كانت متوفرة لدى جمعية العلماء الجزائريين لتضمن لها النجاح السريع فمن جو عالمي واسلامي مناسب الى اصرار فرنسا على مواصلة سياستها التجهيلية الى قصور انصارها من الموظفين الدينيين وانحطاط مستواهم المعنوي والخلقى .

اضف الى ذلك ان مسيرى جمعية العلماء سواء المشايخ الثلاثة الذين اسسوها ، ام المسؤولون الآخرون مثل السيد احمد توفيق المدني الذي تولى فيما بعد كتابة الجمعية العامة والذي امتاز بنشاطه المستمر الناجع والشيخ المبارك الميل الذي كان يتسم بمواهب علمية صحيحة او الشيخ العربي التمسى الذي اشتهر بتحمسه وتعصبه لمبادئ الجمعية وغيرهم من اعضاء الجمعية العاملين المخلصين الآخرين الذين لا يسعنا المجال لذكر اسمائهم جميعا كانوا كلهم متفانين الى درجة التضحية بالحياة في سبيل غايتهم .

يفضل مجهودات هؤلاء الرجال عرفت الجزائر قبيل الحرب العالمية الثانية نشاطا عظيما وحيوية بالغة في الميدانين الثقافي والسياسي ، ورغم مختلف العراقيل التي كانت تعترض سبيلهم لم يعرفوا تهاونا

كانت حقيرة جدا ، وان كانت العربية فى الثانوى تعتبر لغة اجنبية كالانجليزية مثلا ، فى حقيقة الامر كان مقامها المعنوى دون سائر المواد وسائر اللغات باعتبارها لغة الضعيف ولغة الخصم وحصتها الاسبوعية كانت تعادل حصة اللغات الاجنبية الحية الاخرى ، ولكن طريق تعليمها كانت عقيمة جدا لان - الاساتذة الذين كان يهد اليهم بتلقينها كانوا قاصرين من حيث التكوين والمستوى الثقافى العربى ، ومقصرين ، لان الادارة كانت تتفاضى عنهم وعن تهاونهم . ومهما يكن من امر فتعليم العربية فى السلك الثانوى وفى السلك العالى الرسميين كان داخلا فى نطاق سياسة اهانة الجزائريين واضطهادهم واحتقار كل ما يمت اليهم بصلة .

14 - طريق الفرنسيين لتعليم اللغة العربية فى الثانوى والعالى :

لذا كان الاساتذة يقضون معظم اوقاتهم فى تسلية تلاميذهم بحكايات مضحكة مثل قصص جحا ، وكان التلاميذ يفتنمون وجودهم فى قسم العربية للاستراحة او لمراجعة دروسهم او اتمام تمارينهم فيما يعتبرونه من المواد الرئيسية .

واذا ما حاول الاستاذ من حين لآخر ان يعمل بجهد ، اتخذ اللغة الفرنسية أداة للتبليغ شأنه فى ذلك شأن اساتذة اللغات القديمة الميتة كاللاتينية مثلا واليونانية القديمة .

وليس من الغريب فى شيء هذا السلوك من طرف اساتذة العربية فى الثانوى وكلهم بل ومعظمهم تخرج من الجامعات الفرنسية حيث تدرس العربية كلفة اجنبية ميتة .

وفى حقيقة الامر كان الاخصائيون فى مستوى التعليم العالى الرسمى يعتبرون اللغة العربية كاحدى الوسائل التى تمكنهم من بلوغ اهدافهم العلمية . فدراساتهم وبحوثهم تكاد كلها ترمى الى اماطة القناع عن ماضى العرب والشعوب الاسلامية فيما يتعلق بالتاريخ وعلم الاجتماع وتاريخ الآداب وفقه اللغة والفلسفة وعلم الفلك الى غير ذلك . فافكارهم كلها متجهة نحو الماضى وبوجه خاص نحو القرون الوسطى التى ازدهرت فيها المدنية العربية .

وحيث انهم كانوا يحترقون حاضرا العرب ولا يؤمنون بمستقبلهم كان تعليمهم للمواد العربية يدعو

- دراستهم الاسلامية العالية فى تونس او المغرب . وفى واقع الامر كان الطلبة الجزائريون القاطنون بعمالة قسنطينة وعمالة الجزائر يتوجهون الى تونس بينما كان طلبة عمالة وهران وحتى طلبة ناحية الاصنام وتونس يقصدون جامعة القرويين بفاس . وعدد طلبة تونس كان يبلغ حوالى 600 طالب سنة 1954 بينما كان عدد طلبة فاس يناهز 300 طالب فى نفس السنة .

ومن بين متخرجى المدارس الثانوية الحرة كانت فئة تقدر بالعشرات تتجه الى الشرق العربى (مصر سوريا - بغداد - الكويت) لمواصلة دراستهم العالية هذا وان مدارس جمعية العلماء لم يكن ينحصر وجودها فى المدن الكبرى بل كانت منتشرة فى سائر المدن المتوسطة كجاية وجيجل وباتنة وبسكرة وعنابة وتونس والاصنام وبوسعادة والاغواط ومستغلم وبن العباس وتيارت . وفى مدينة كبيرة واحدة مثل الجزائر كانت توجد عدة مدارس حرة مبعثرة فى مختلف الاحياء مدرسة منها فى صلنبي (Salembier) واخرى فى ساتوجين (St Eugène) واخرى فى الرويسو Ruisseau واخرى فى بلكور (Belcourt) الخ .

ومهما يكن من امر ورغم مجهودات مسيرى الجمعية وتضحيات الشعب لم تكن المدارس الحرة كافية لحاجيات البلاد . واذا تذكرنا ان عدد الاطفال فى سن التعليم كان يقرب من المليونين سنة 1954 فى حين ان عدد الابناء الذين وجدوا مقاعد فى مدارس الحكومة الفرنسية لم يتجاوز 300.000 تلميذ ادركنا الى اى حد بعيد وصلت اليه المأساة الجزائرية فى المسندان التربوى لان نسبة التلاميذ الذين كانوا يتعلمون لم تكن تبلغ تماما ذلك العدد .

قلة عدد الجزائريين الذين يقرأون - طغيان الفرنسية على العربية :

والمقارنة بين عدد التلاميذ الذين كانوا يتعلمون الفرنسية (300.000 تقريبا) ، والتلاميذ الذين كانوا يقرأون العربية (50.000) تبين بكيفية واضحة طغيان الفرنسية على العربية سيما وان حظ العربية فى التعليم الفرنسى يكاد يكون عديم الوجود .

لقد سبق لنا ان اشرنا الى خلو البرامج فى الابتدائى الى سنة 1957 من المواد العربية ، اما التعليم الفرنسى الثانوى - الذى كان عدد تلاميذه الجزائريين لا يبلغ سنة 1954 ، 4.000 تلميذ فكانت اللغة العربية فيه

الى الرجوع الى الماضى والتأمل فيه بصفته ميدانا يستحق ان يكتشف ويستغل . واما ان يدرسوا العربية بصفتها عنصرا خليقا بأن يساهم فى انعاش الحاضر وتهيئة المستقبل وفتح الآفاق العلمية والادبية امام الناشئة المتعلمة فذاك ما لا يخالف فكر الكثيرين منهم .

وخلاصة القول ان تعليم العربية فى المعاهد الرسمية الفرنسية لم يكن يستجيب لا لحاجيات العصر والبلاد ولا لمطامح الشعب الجزائرى .

فكان ناقصا قليلا من حيث الاسلوب غير مناسب لروح العصر وغير كفيل بتهيئة المستقبل ، ولئن كان جديرا باطلاع الطلبة على قواعد البحث العلمى حسب الطرق العصرية . وتثقيفهم ثقافة فرنسية لا يستهان بها ، فهو عاجز عن تعليمهم اللغة العربية بصفتها لغة حية ، لغة التخاطب والكتابة .

فالمدارس الاسلامية الرسمية الثلاث كان الغرض منها كما اسلفنا ذلك ، تكوين موظفين من الاهالى ، تستعملهم الادارة الاستعمارية كأداة فى معاملتها مع الشعب الجزائرى فى المسائل التى لا تتوقف عليها مصالح الاستعمار الكبرى فأصبح تعليمها غير مطابق لمقتضيات البلاد فى النصف الاول من القرن الحاضر . فلذا كان يثير الانتقادات العنيفة لا من طرف النواب الجزائريين فحسب ولكن حتى من طرف طلبة المدارس انفسهم الذين كانوا يطالبون بتغيير وضعية تلك المدارس الرسمية وتعديل برامجها وجعلها تهىء الى البكالوريا .

15 - تحويل المدارس الرسمية الثلاث الى ثانويات «فرنسية اسلامية» :

فلم تجد هذه المطالب اذنا صاغية من لدن الحكومة الفرنسية الا سنة 1951 . ففي 10 جولييت 1951 اى مائة سنة بعد انشائها ظهر مرسوم يحول المدارس الرسمية الثلاث الى ثانويات «فرنسية اسلامية» تهىء التلاميذ الى باكالوريا التعليم الثانوى . وبالإضافة الى هذه المدارس المخصصة للإبناء أنشئت ثانوية «فرنسية اسلامية» للبنات .

ومن الملاحظين من يعتبر هذا المرسوم كخطوة اولى فى سبيل اصلاح التعليم الجزائرى الرسمى لانه يهدف الى التوفيق بين التعليم العربى التقليدى والتعليم الفرنسى العصرى . فهو بعبارة اوضح اول محاولة

ترمى الى وضع ازدواجية اللغات على أسس موضوعية مطابقة شيئا ما للواقع الجزائرى حينذاك .

والفضل فى هذا الاصلاح يعود بالطبع الى الشعب الجزائرى الذى بتأييده لجمعية العلماء وانضمامه حول مبادئها أثار خوف المستعمرين ، فكان رد الفعل من طرفهم المشروع فى توسيع التعليم «الفرنسى الاسلامى» على النمط التونسى والنمط المغربى .

وهذا التعليم «الفرنسى الاسلامى» رغم ما ادخل عليه من تحسينات لم يكن مستجيبا استجابة كاملة لحاجيات البلاد من حيث الكم ولا لمطامح الشعب من حيث المبدأ وذلك لان برامجه كانت خالية من الروح الوطنية التى تحت التلاميذ على التمسك بقيم الوطن وتقاليد النبيلة وتفتح امامهم آفاق المستقبل الباسم .

ومهما يكن من امر فلم يكد يدخل هذا النظام الجديد فى طور التطبيق حتى اندلعت ثورة فاتح نوفمبر سنة 1954 المباركة فقد يعسر علينا اذن استخلاص النتائج الصحيحة من تجربة لم تأت بكيفية واضحة اكلها . بيد اننا نرى على ضوء التجارب الاخرى التى وقعت فى سوريا ولبنان وتونس والمغرب - اى فى البلاد العربية التى تأثرت بالثقافة الفرنسية - فى التعليم «الفرنسى الاسلامى» نواة التعليم الجزائرى فى فجر عهد الجزائر المستقلة بشرط ان تلحق به التعديلات اللازمة فيما يخص البرامج وفيما يخص الاسلوب والروح وبشرط ان يعوض حينما تسمح الظروف بذلك وفى اقرب وقت ممكن بتعليم جزائرى صرف لا تشغل فيه اللغة الفرنسية الا حصتها المعقولة بصفتها لغة اجنبية لا غير .

16 - التعريب ومشاكله :

وهذا ما يؤدنا الى الكلام عن التعريب ومشاكله فى هذه المرحلة من حياة الجزائر الثقافية .

ولعل الفارىء قد لاحظ وهو يطالع الفقرات السابقة من هذا البحث ان الشعب الجزائرى ناضل طيلة نيف ومائة سنة فى سبيل تحريره السياسى وتحريره الثقافى فى آن واحد وان كلا من الكفاحين كان متصلا بالآخر اتصالا وثيقا ، اذ لا سبيل بطبيعة الحال ان يتحرر الشعب سياسيا ويبقى فاقندا لاهم عنصر واقدسه من كيانه الوطنى الا وهو ثقافته الخاصة ، وبالتالى الاداة المعبرة عن تلك الثقافة اعنى بها اللغة العربية ، لغة الآباء والاجداد .

الركب مدة سبعة قرون ليست قادرة الآن على تبليغ المفاهيم العلمية ومدلولات الحضارة العصرية المادية والمعنوية .

ان في هذا الحكم على لغتنا مغالة ظاهرة وان كان يتضمن نصيبا من الحقيقة . ونحن نعرف ان هناك بلادا عربية كسوريا مثلا عربت تعليمها تعريبا تاما من القسم التحضيري في الابتدائي الى السنة الاخيرة من التعليم العالي . والمواد العلمية كلها وكذلك الطب والصيدلة تلقن بالعربية الفصحى ، ويوجد في سوريا اطباء ومهندسون واساتذة في الكيمياء والفيزياء تخرجوا من جامعات عربية تلقوا فيها جميع دروسهم بالعربية . وقيمتهم المهنية لا تقل عن قيمة زملائهم المتخرجين من الجامعات الاوربية ، بيد ان ضعف البعض منهم في معرفة اللغات الاجنبية كالفرنسية او الانجليزية حال بينهم وبين الاطلاع على البحوث والدراسات العلمية والطبية التي تنشرها المجالات التخصصية بأحدى اللغات العالمية العصرية ، الامر الذي جعلهم نظرا لوفرة الاكتشافات التي تظهر باستمرار في تلك الميادين يتخلفون عن رفاقهم الذين يحسنون لغة اجنبية .

فالتقص اذن لا يعود في هذا المجال الى اللغة العربية ذاتها بل الى قلة عدد العلماء الاخصائيين العرب والى قلة بل عدم المجالات الدورية العلمية التي تنشر وتتابع باللسان العربي كل ما يخترع ويكتشف في الحقل العلمي ، وقد ينجم عن هذه الملاحظات ان الازدواجية في معرفة اللغات تظل ضرورية في صعيد التعليم العالي وبالنسبة للطلبة الذين يتخصصون في دراسة العلوم والطب والصيدلة . وذلك ما لم يتسع نطاق التعليم العالي بالعربية في مختلف البلاد الشقيقة ، وما لم يتضاعف عدد المجالات العلمية العربية ويرتقى مستواها واذا ما اعتبرنا المجهودات التي تبذلها الجامعات والجامعات اللغوية والعلمية العربية في هذا السبيل تيقنا ان ذلك سيحدث قريبا بحول الله .

ومهما يكن من امر فاللغة العربية قادرة الآن على تبليغ كل ما يعهد اليها بتبليغه فيما يخص تعليم مختلف المواد وذلك في حقل المحسوسات والمعنويات على السواء اللهم الا ما كان من التعليم التقني الذي لم تضبط فيه بعد أسماء جميع الادوات وتسمية جميع العمليات ، ففي هذا الميدان تظل الجزائر محتاجة ايضا الى استعمال اللغة الفرنسية بالإضافة الى العربية مدة من الزمان .

وثورتنا الحالية تتسم هي ايضا بهذه الصبغة ، حيث انها تهدف الى استعادة تراثنا الفكري وخيرات البلاد المادية ، ولا نرى لابرار هذه الصبغة احسن وسيلة من ذكر الفقرة الرئيسية من الكلمة التي ألقيناها باسم جبهة التحرير الوطني في مؤتمر التعريب المنعقد بالرباط على الصعيد العربي من 3 ابريل الى 7 من سنة 1961 :

وان الحرب التحريرية المسلحة التي اكره الاستعمار الفرنسي الشعب الجزائري على خوض غمارها منذ فاتح نوفمبر سنة 1954 فرضت مرة اخرى على الجزائريين احكامها القاسية . فتكررت نفس المأساة التي اصابت الشعب الجزائري على اثر الاحتلال . فاعلقت المدارس العربية الحرة او حولت الى ثكنات احتشد فيها الجيش الفرنسي واعتقل الاساتذة والمعلمون والطلبة ، وحجزت الجرائد الوطنية واصبحت اللغة العربية غريبة من جديد في قعر دارها .

وهذه الاجراءات الهوجاء من طرف الادارة الاستعمارية الفرنسية لاعظم دليل - ان احتيج الى دليل - على ان ثورتنا العتيقة الراهنة هي اولا وقبل كل شيء ثورة في سبيل صيانة مقوماتنا الروحية الجوهرية وعلى رأسها الثقافة العربية ، اذ المقومات الروحية هي كما تعلمون انفس واقدس دعائم الامة . وكل مجاهد في جبالنا ، وكل فدائي في مدننا وكل مناضل في منظماتنا السياسية والثقافية والتفافية ، سواء منهم من يتقن لغة الضاد او من صرفته الظروف الاستعمارية القاهرة عن عذب مواردها ، كل من هؤلاء مؤمن اشد الايمان وعيا ، ان انقاذ عروبة ثقافة وطنه يشكل اهم اهداف نضاله وتضحياته . فثورتنا الحاضرة ، ايها السادة ، من صميم مشاكل التعريب بل هي على الاصح من انجح حلول التعريب في الجزائر .

فمسألة التعريب اذن هي من حيث المبدأ من المسائل الطبيعية المسلم بها والتي لا يجادل فيها اي جزائري كان كيفما كانت نزعته واتجاهاته الفلسفية والثقافية .

وكل ما في الامر هو ان وجهات النظر والاختلافات بين آراء المواطنين تنحصر في مشاكل انجاز التعريب من حيث الاساليب والآجال والعناصر التي تستطيع الاضطلاع بهذه المهمة التي هي في نفس الوقت شاقة ومشرفة ، فمن المواطنين من يذهب الى التاجيل بالتعريب بحجة ان اللغة العربية التي تخلفت عن

يتعلموا اسماءها . وبعبارة اخرى فالكتاب وضع بالفرنسية لاطفال فرنسيين يتكلمون بالفرنسية في البيت وخارج المنزل . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فالعبارات والمفردات والمدرجات التي يتضمنها الكتاب جاءت كلها او معظمها في مستوى التلاميذ الاجتماعى .

فنتج عن هذا ان التلاميذ الفرنسيين الذين يتلقون تلقينهم من هذا الكتاب الفرنسى هم بدون شك في مستوى ارفع من التلاميذ العرب الذين يتعلمون من كتاب عربى . ونحن نقول في مستوى ارفع من حيث المادة والمفردات والمدرجات لا من حيث الذكاء والمواهب فاذا كانت المقارنة بين الكتاب العربى والكتاب الفرنسى او الانجليزى او الايطالى يقصد منها هذا الفرق فهى لا محالة منطقية مقبولة .

وإذا رجعنا الى حالة الطفل المغربى فى الجزائر وتونس والمغرب الاقصى وجدنا مستواه الاجتماعى اقرب بكثير الى مستوى الطفل العربى المشرقى منه الى الطفل الاوروبى . هذا بالنسبة الى الجماهير الشعبية لا الى الاقليات التى ، بفضل رزقها ، تفلقت شيئاً ما فى البيئة الاوربية فى عهد الاستعمار وتمكنت هكذا من اكتساب ثقافة اوربية عصرية . فابناء اعضاء هذه الاقليات بدون شك فى مستوى واحد او يكادون مع ابناء افراد الجاليات الاوربية فى المشرق العربى ، وخاصة فى المغرب العربى واكرام هؤلاء التلاميذ على استعمال الكتب العربية الشرقية يودى بدون شك الى انخفاض مستواهم . ولكن اكرام الاغلبية الساحقة من ابناء الشعب فى الجزائر على استعمال الكتب الفرنسية يودى الى ارهاقهم عيشاً لانهم يتعلمون عبارات ومفردات تدل على مدرجات لم تكن صورها قد ارتسمت فى ذهنهم وذاكرتهم وبعبارة اخرى فهم يقرأون فى كتاب يصف لهم محيطاً يتضمن اشياء لم يكن سبق لهم ان شاهدوها . وهذا مخالف لقواعد البيداغوجية وبسيكولوجية الاطفال .

ومما يزيد فى الطين بلة ، هو انهم يتعلمونها فى لغة غريبة عنهم . ونحن نعلم ان هناك مواطنين يزعمون ان العربية الفصحى لا تقل غرابية على الجزائريين من الفرنسيه . وهذا خطأ سافر لا بالنسبة الى الذين يستعملون العربية العامية فقط ولكن بالنسبة حتى لاولئك الذين يتكلمون احدى اللهجات البربرية «كالبائليّة» مثلاً او «المزابية» ، لان هذه اللهجات مفعمة بالمفردات والعبارات العربية .

والذين يقولون بغير صلاحية العربية للتعليم فى الظروف الراهنة يحاجون بانهم اذا قارنوا بين كتابين من كتب التلاوة المستعملة فى السنة الاولى من الابتدائى مثلاً لاحظوا ان الكتاب العربى لا يستعمل الا على 800 كلمة بينما الكتاب الفرنسى او الانجليزى او الايطالى يحتوى على 1.200 كلمة . وهم يرون فى هذا الفرق الدليل القاطع على غناء اللغات الاجنبية وفقر العربية . ونحن لا ننكر ما لهذه الحجة من قيمة غير أن الجناية - ان كانت ثمة جناية - لا تعود الى اللغة العربية بصفتها اداة تعبير - بل الى المجتمع العربى نفسه الذى كتب له ان يظل جامداً فى الوقت الذى ازدهرت فيه الحضارة العصرية على اثر اكتشاف الطاقة البخارية اولا ، والطاقة الكهربائية نانياً . وبالتالي على اثر نمو الصناعة الحديثة فى اوربا وامريكا .

وكان علماء الاجتماع قد علمونا ان المفردات والمصطلحات فى اية لغة كانت لا تخلق الا بعد اختراع الاشياء والادوات والآلات واكتشاف المعانى والمدرجات . فالكلمات تنشئها الضرورة للدلالة على الاشياء والمعاني .

وبما ان اشياء كثيرة ومعانى شتى ظهرت للوجود مع الاسماء المعيرة عنها فى اوربا وامريكا دون ان تظهر فى نفس الوقت فى العالم العربى ، ظلت مجهولة لدى العرب برهة من الزمان ولما حاولوا اخذها عن اوربا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر صعبت عليهم تسميتها بالعربية ، هذا وان كان العالم العربى قد طوى مراحل شاسعة فى مجال التعريب فلم يستطع لحد الآن أخذ كل ما اكتشف من آلات ومعان فى العالم العربى لان استعمالها يتوقف على ارتقاء العرب فى الميدانين التقنى والعلمى .

فالمسألة اذن تتعلق اولا وقبل كل شىء بتطور المجتمع ، ومتى تطور المجتمع تطورت اللغة وجات قرائح ابنائها بالكلمات الضرورية فى مجال التخاطب العادى واكتشف علماءها المصطلحات اللازمة فى الميدان العلمى والحقلين الفنى والتقنى وذلك ما تقوم به الجامعات العلمية واللغوية فى البلاد العربية فى المشرق وما تصدى لتنسيقه وتوحيده المكتب الدائم بالرباط ، فلا غرابة اذن ان يشتمل كتاب التلاوة الفرنسى على عدد ضخم من المفردات اذ هو وضع للاطفال الفرنسيين يصف لهم فى نصوصه العالم المادى والعالم المعنوى الذين هم فيهما عاثشون . فالكلمات التى تقدم اليهم تاتى للتعبير عن اشياء تحيط بهم وعن مدرجات انسوها . ولم يبق الا ان

الدول الصديقة او الشقيقة ليست بالبلاد المستقلة .
فان التجربة قد دلت على ان الافتقار الى الاجانب في
ميادين التعليم والتربية والتقنية أشد خطورة وأعلى
ثمنا من الاستعانة الاقتصادية .

والسُرط الثاني يتشخص في قيمة الاطارات التي
يجب تكوينها . فلا بد ان يكون المعلم او الأستاذ
مقتدرا لا فيما يخص مستواه العلمي فحسب ولكن
حتى فيما يتعلق بقدرته على التبليغ وتهذيب الاخلاق.
وذلك لان الجانب التربوي ليس أقل اهمية من الجانب
التعليمي . سيما وان الاستعمار لم يكتف بحرمنا من
اغتراف المعارف بل صدنا ايضا عن مقوماتنا الاخلاقية
الموروثة .

وتحقيق هذا المشروع لا يتم بالطبع الا بفضل
اعانة البلاد العربية الاخرى . ونحن نظن ان هذه
الاعانة لا ينعف تقديمها الا اذا كانت منظمة ومستجيبة
لحاجيات البلاد . لاننا نعتقد ان تعريب الناشئة في
الابتدائي والثانوي لا يتم الا بواسطة اساتذة جزائريين .
ففي المرحلة التي نعيش فيها ، نحن نفتقر الى اساتذة
أكفاء ليشتغلوا في التعليم العالي وفي مدارس تكوين
المعلمين والاساتذة . وهؤلاء الاساتذة الكبار لا تتوفر
عليهم الجزائر الآن فلذا نرى من الواجب استقدامهم
من بلاد المشرق العربي .

ونحن نرى في ختام هذا البحث ان معضلة التعريب
تتصل اتصالا متينا برفع مستوى الشعب في الميدان
الاقتصادي كما اننا نرى رقع مستواه الاقتصادي
موصولا بتهديبه وثقيفه .

ونحن نشعر بان مشكلة التعريب في بلادنا أدق
من ان تحلها هذه الملاحظات الواجزة . فهي في حاجة
اولا وقبل كل شيء الى وضع تصميم موقوت من طرف
اساتذة خبراء وثوريين ضمن تخطيط اقتصادي
واجتماعي عام تحدد فيه بالتدقيق المبادئ والاهداف
كما تعرف في المراحل . وهناك خطر ان يجب تجنبها
وهي :

1 - التهاون في مسألة التعريب التي هي من
صميم المسائل الوطنية الثورية .

2 - الارتجال الذي يؤدي لا محالة الى التضحية
باجيال من المواطنين ، وعلى كل فلا بد من اعتبار
ضرورة التعريب في اطار التقنية ورفع مستوى الشعب
العلمي . ثم ان على واضعي تصميم التعريب ألا ينسوا
ان عدد الجزائريين الذين يقرأون بالفرنسية يزيد على
15٪ بينما عدد القارئ بالفرنسية لا يتجاوز 5٪ .

حميد بن سالم

فمن الوجهة النظرية والمنطقية عملية تعريب التعليم
في الجزائر اصبحت ضرورية منذ اليوم الذي
استعادت فيه البلاد استقلالها ، بيد ان الجزائر ليست
جزيرة منعزلة عن العالم تسيير بين عشية وضحاها
جميع شؤونها بحرية كاملة كان المؤثرات الاجنبية
زالت في ظرف يوم او اسبوع .

ولا ينبغي ان ننسى ان الجزائر ظلت مدة قرن
وتصف تقريبا تحت سيطرة الاجانب الذين سيروها
على حسب هواهم وبمقتضى مصالحهم ، وان جهازا
اداريا وتقنيا قد نظم في البلاد واصبح على مر الايام
راسخا فيها مستحكما لا يمكن القضاء عليه دفعة
واحدة لان في هذا الجهاز وجهها الحديث المناسب
لمقتضيات العصر الذي نعيش فيه .

وليس معضل التعريب وحده يستوجب الحل
المستعجل . ان هناك مسائل لا تقل حيوية عن هذا
المشكل الا وهي الاحتفاظ بالمستوى التقني والاداري
التي وصلت اليه الجزائر على طريق الفرنسية . والكل
يعلم ان قوة الشعوب والدول تتجسم في مستواها
العلمي وفي اطاراتها التقنية والفنية . فتسيير الاقتصاد
والتجارة والصناعة وحتى الفلاحة اصبح يتجسم في
التقنية التي امست تنحصر في تلك الاقلية التي اشرفنا
اليها .

فليس للجزائر من بد في ان تحتفظ بذلك المكسب
الذي تشخصه الاقلية المثقفة بشرط ان تكون في
خدمة الشعب وان تساعد الشعب على الارتقاء السريع .
ثم ان الوضعية تغيرت بعد الاستقلال لان خيرات البلاد
عادت لندويها من ابناء الشعب الذين بفضلها سرعان
ما يتداركون تخلفهم ويلتحقون بالركب . فالمجتمع
الجزائري يتوفر اليوم على جميع الوسائل التي تمكنه من
التطور المادي والمعنوي والفكري . فما على مسيريه الا
ان يحسنوا التصرف في هذه المرحلة الانتقالية وان
يجدوا الحلول التي يرى فيها الشعب التوفيق بين
ضرورة التعريب وبين ضرورة رفع مستوى البلاد
التقني والاقتصادي ونحن نعتقد ان اول مرحلة
للتعريب في الجزائر تتعلق بتكوين الاطارات مبن
معلمين في الابتدائي واساتذة في الثانوي الامر الذي
لا يتحقق الا بانشاء مدارس لتكوين المعلمين والاساتذة
في البلاد وبوضع (لا بترجمة) كتب مدرسية في
مختلف المواد بالعربية .

والشروع في هذه العملية اي عملية تشييد هذه
المدارس لا يقبل تأجيلا ولا تسويفا ، فالبلاد التي
تظل عشرات السنين مفتقرة الى اساتذة وخبراء وفناني